صورة الجزائر في أدب أندريه جيد

د. عمار رجال
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة باجي مختار-عنابة

ملخص

تشكل اهتمامات أديب ما وكتاباته عن بلدٍ مَا موضوعا ثريا للدراسات المقارنة. ويتناول هذا المقال بعض ما كتبه الأديب الفرنسي أندريه جيد[1] عن الجزائر، ومدى تفاعله مع هذا البلد، بكل مقوماته: من دين وحضارة، وشعب، وعادات وتقاليد... وما يميّز هذه الكتابات من واقعية وخيال وحقيقة وما نتج عنها من فن وإبداع. لا أحدَ يشكّ بأن الجزائر فتقت خيال "جيد" وفتحت عينيه على عالم طالما تحمس لاكتشافه والعيش بين أبنائه، لأنه ببساطة عالم يبعث على الطمأنينة والراحة من خلال طبيعة خلابة وصحراء فاتنة وأناس طيبين... إنها الصورة التي رسمها الكاتب للجزائر بحب كبير وحماس فياض... صورة تستدعي الوقوف عندها مليا لفك رموزها وقراءة أبعادها.

الكلمات المفاتيح: رحلة، صورة، استقبال، تأثير وتأثّر، خيال.

Résumé

L'intérêt que porte tout homme de lettres à un pays et les œuvres qu'il lui consacre constituent un riche sujet pour la littérature comparée. Cet article s'intéresse aux échos de l'Algérie dans l'œuvre d'André Gide, et l'influence qu'elle a eu sur lui, à travers toutes ses composantes : religion, culture, peuple, traditions et coutumes… ce qui a caractérisé ces écrits (réalisme, imagination et réalité)… et ce qui en a résulté : art et romantisme. Personne ne doute que l'Algérie a bien développé l'imagination de Gide et a ouvert ses yeux sur un monde dont il a envie de découvrir et d'y vivre: un monde où il aspire paix et tranquillité par sa nature et son désert fantastiques… c'est une image exceptionnelle de l'Algérie que Gide a présenté aux lecteurs avec un grand amour et un enthousiasme infini.

Mots clés: Image, réception, influence, succès.

Abstract

*This article deals with some of **André Gide's** writings about Algeria, a country that he admired and that influenced him a lot through its different components: religion, culture, people, traditions and customs. The article also deals with the characteristics of André **Gide**'s writings like: the relations between reality and imagination. No doubt, Algeria is the fulcrum point around which **André Gide**'s imagination has greatly developed. It has enabled him to see a world that he has ever needed to discover and belong to. For him, -Algeria- with its desert and nature has given him two pré-requisite elements that he wants to get: peace and tranquility. It is a fantastic image of Algeria that **Gide** has adequately presented to his readers, with love and enthusiasm.*

Keywords: Image, influence, trip, imagination.

كانت حياة "**أندريه جيد**" رحلة دائمة، إذ لم يكن يستقر به مكان حتى يتنازعه الشوق إلى مكان أو بلد آخر؛ لقد قضى حياته في ترحال دائم بين بلاد الشرق وبلاد الغرب منذ كان فتى حتى وفاته شيخا. تجوّل طويلا وبخاصة في مدن إيطاليا وأنجلترا وألمانيا وسويسرا... وأعجب بأرض إفريقيا كثيرا فزار تونس والمغرب ومصر... كما اهتم بشؤون إفريقيا السوداء فزار تشاد والكونغو... ووصل به حب الاستطلاع إلى لبنان وسوريا وتركيا وإيران وروسيا... لكن الذي ترك الأثر الكبير في حياته وأدبه هو الجزائر منذ قدومه إليها لأوّل مرة عام 1893 مريضا جسديا حيث كان يعاني من مرض السّل، ومنهكا نفسيا بفعل ضغط العائلة والقيود الصارمة التي كانت تخضعه لها خاصة ما تعلق منها بالجانب الأخلاقي.

زار **أندريه جيد** الجزائر على فترات مختلفة متفاوتة فيما بينها، سواء من حيث الفاصل الزمني أو من حيث مدّة الإقامة في كل منها، وقراءة متأنية في يومياته تظهر لنا بأن أوّل زيارة كانت عام 1893، وآخرها كان عام 1945؛ إذن هي فترة تزيد عن نصف قرن ظل فيها الكاتب يتردّد على الجزائر، يدوّن عنها أروع الصفحات ويرسم لها أجمل صورة، امتزج فيها الخيالي بالواقعي، صورة جسّدت الكثير من واقع الجزائريين إبّان الاستعمار، وأبانت الكثير من روعة هذه الأرض الطيبة المتمسكة بجذورها وأصالتها، صورة جمعت بين الكثير من المتناقضات.

1- بؤس وشقاء:

يطلعنا **جيد** منذ البداية بأنّ الجزائريين يعيشون أوضاعا متردّية، تطغى عليها مظاهر الفقر والبؤس وتصدر منها أنّات أناس قسَت عليهم الأيّام من جهة، واستغلّت براءتهم وسذاجتهم قوة استعمارية يجهلون أهدافها، ولعل ما يجسّد هذا الواقع المرير هو هذه الكلمة "العريان" التي كثيرا ما يوظفها **جيد** في كتاباته، والتي لا يختلف اثنان في رموزها ومعانيها. إنّ الصورة التي يرسمها "**جيد**" للطفل "بشير" في "اللاأخلاقي" (L'Immoraliste) دليل قاطع على هذا الواقع المتردّي، فهو يرتدي "قندورة" يبدو فيها شبه عارٍ، و"برنوسا" باليا تداولت عليه الأيام كمعطف "غوغول"، ولم يكن حال الجزائريين الآخرين بأفضل حال؛ وإذا كان أتراب "بشير" في فرنسا وغيرها يذهبون إلى المدارس، فهو محكوم عليه أن يذهب إلى المقهى ليسهر على نظافته ويخدم الوافدين عليه، أمّا "عاشور" فسعيًا منه لربح فرنكات قليلة يكسر الحجارة الخاصة بشقّ الطرقات وفقد معه صديقه "حمّ الطّاهر" عينًا نتيجة حادث عمل، أمّا "الصادق" فيبيع خبزًا في السّوق، أمّا "بوبكر" فلم يجد إلاّ الزواج وهو في الخامسة عشر من عمره، و"مختار" لا يمكنه الظهور لأنه كان في السجن(2). إنّها أوضاع لا يمكن أن تجسّدها إلاّ صورة خاصة بالأعمال الشاقة لعالم الأطفال المقهور والشباب المسحوق، فكل عنصر فيها يوحي بأن الإنسانية ولّت وإلى الأبد.

لم يكن نصيب الفتيات بأحسن حال من الفتيان، لم يكن بمنأًى عن تقلّبات الدهر واستغلال الوحوش... ولم يجد الكاتب –نظرًا لبشاعة الظروف والمعاملة السّيئة التي تتعرض لها الفتيات– من كلمة معبّرة أقلّ من كلمة "قطيع"، كلمة أصبحت مرادفة لمجموعة من الفتيات سُخّرن لخدمة القادمين من بعيد، وظيفتهن إشباع رغبات هؤلاء المستعمرين والرحالين الأوروبيين، والسّهر على راحتهم وخدمتهم بكل الوسائل، آخرها رقصات مختلفة، مخلّة بالحياء تمتد حتى مطلع الفجر... ولا يهمّ إذا كان عمرُهن لا يتجاوز السادسة عشر كـ"مريم" وقريبتها "أمباركة"... ودون أي تفسير يعتقد "**جيد**" بأن الإسلام سينظر إلى "مريم" و"قطيعها" نظرة رحمة وتسامح(3). يمكننا انطلاقا من هذا الواقع القاسي أن نحمل **جيد** بعضا من المسؤولية باعتباره شاهدا على هذا الواقع، لكننا في الوقت

نفسه نقرّ بأنه لم يتردد في كشف حقائق مرعبة لَطَالَمَا تغافل عنها سابقوه ومعاصروه من كتّاب ورحّالة... فهو لم ينسَ يومًا شعاره: "الحقيقة إني لا أريد السعادة التي تتقدّم على التعاسة، والغِنَى الذي يحرم الغيرَ لا أريده. إذا كانَ ثوبي يُعري إنسانًا آخر سِرت عاريًا"(4). لقد حاول جاهدًا أن يجسّد هذا الشعار، وتسنّى له ذلك فعلا فها هو مثلا في مدينة "قسنطينة" يفقد صوابه وتثور ثائرته لمظاهر مرعبة، بل وصل به الأمر إلى حدّ المغامرة بحياته، إذ في يوم بارد تكسوه الثلوج –وهو في حالة نقاهة– يغادر غرفة الفندق ليكون بجانب شاب كفيف سقط أرضًا يشجعه ويرفع من معنوياته(5)، يضاف إلى هذا مواقف أخرى يطول ذكرها.

2- حركة ونشاط:

أ- المقاهي:

تحتلّ المقاهي حيّزا واسعًا في حياة الجزائريين، فهي تأتي بعد المساجد من حيث الإقبال، يؤمها الكبار والصغار وكذلك الأجانب... يفضل فيها الكُلُّ الجلوس والاستراحة... في كلّ من "بسكرة" و"الجزائر" و"البليدة" وغيرها... إنها المكان الذي يلتقي فيه الناس لتجاذب أطراف الحديث بعد عناءِ النّهار، فكم تكثر بها الحركة ليلا وتقام سهرات تميّزها موسيقى شرقية ورقصات فتيات خليعات كما هو الحال في مقهى الشارع المقدّس ببسكرة(6). وأغلب مشروبات هذه المقاهي مَحَلِّيَة كثيرًا ما كانت تثير الكاتب وتحثّه على تدوين ذلك: "...فلا يُقدّم سوى القهوة وعصير البرتقال أو الشاي. شاي عربيّ، عُذوبة لاذعة، زنجبيل، شراب يُحيي عهد شرق أكثر غلوّا وأشدّ تطرّفا. طعمه حريف لا يستطيع المرء أن يشرب الفنجان منه حتّى النهاية"(7).

تلعب المقاهي دورًا آخر يتمثل في جلب العديد من النّاس للاستماع لمَا كان يُرتجل وينظم ويقرأ من قصائد شعريّة، وقصص شعبية... يوحي كلها بعراقة الجزائريين وتمسّكهم بأصالتهم وجذورهم، وثقتهم في أنفسهم وقبل ذلك ثقتهم في ربّهم. لقد كان للرواة دورًا كبيرا في رواج هذه القصائد ومثلها القصص والحكايات لما كانوا يتداولونه من أخبار وأحداث، و"**أندريه جيد**" نفسه كان شديد الإعجاب لسماعه هذه الأشعار والحكايات، ولم تكن اللغة التي كانت تقرأ بها، وهي العربية البعيدة عن الفصحى لتمنعه من تلك المتعة واللحظات السعيدة، ولا حتى الطريقة المتّبعة في مثل هذه القراءات التي تحمل طابعًا محليًا مميّزًا: "وأحيانا يقصّ فيها شاعر قصاص حكاية طويلة. فكم من ليالٍ كنت استمع إلى هذه الحكايات دون أن أفقه منها شيئا"(8). كما تتفتح هذه المقاهي على عالم آخر يتمثل في تعاطي الحشيش وأعمال عنف ومشاجرات بين العرب والإسبان(9).

هذا قليل من كثير دَوَّنه "**جيد**" في أكثر من مؤلّف عن أجواء المقاهي باعتبارها شاهدًا حيّا على جزء كبير من حياة الجزائريين وغيرهم من الأجانب، مقاهٍ، رغم زحف حضارة غربية، لم تتردّد في الإعلان عن تمسّكها بعراقتها وتقاليدها وألوانها المحلّيَة.

ب- قوافل تجارية:

لم يستسلم الجزائري يوما رغم معاناته وظروفه القاهرة، بل ظل يقاوم في سبيل تحسين أوضاعه، كان يعي أنه بالعمل والكدّ يمكن أن يتجاوز محنه، وعليه حمّل نفسه مشاق السفر إلى بلاد بعيدة في تجارة تميّزها سلع وبضائع شرقية: "قوافل! قوافل! آتية في المساء! إنها قوافل سافرت في الصباح، قوافل أرهقتها وعثاء السفر، سكرى من طول التنقل وهي الآن يائسة! قوافل! ليتني أستطيع السفر معك يا قوافل.

كان منها ما يسافر نحو الشرق، باحثا عن الصندل واللآلئ والحلويات المصنوعة من العسل في بغداد، والعاج والمطرزات، ومنها ما كان يمضي نحو الجنوب في طلب العنبر والمسك والتّبر وريش النعام. ومنها قوافل تؤم الغرب مساء، وتتوارى خلف الوهج الأخير من الشمس. رأيت عودة القوافل وهي مرهقة، فتبرك الجمال في الساحات ثم تفرغ أحمالها، إنها طرود من الخيش الكثيف ولا يعلم ما في داخلها، وجِمالٌ أخرى تحمل نساء مختبئات في الهودج"[10].

نقف هنا أمام صورة رائعة لفنان بارع استطاع بعبقريته أن يُجسّد لنا واقعا بكل تفاصيله وخلفياته وأبعاده، واقعا ظل يمثل مرحلة هامة من تاريخ الجزائر، حيث كانت تعتمد على تجارتها الخاصة بعدما سُلبت أراضيها منها بكل خيراتها واستبيحت ثرواتها. تعكس هذه الصورة أيضا ذاك الاهتمام الكبير الذي كان يوليه الكاتب لطبيعة حياة سكان الجنوب الجزائري، كان يعلم أين تذهب هذه القوافل والأشياء المتنوعة التي تعود بها حسب حاجيات المواطنين من جهة، ومتطلبات السوق من جهة أخرى. إنها صورة تمثل مدى ارتباط "**أندريه جيد**" بمدينة بسكرة وأهلها وغيرها من مدن الجزائر، صورة تؤكد المقولة الشهيرة "كلّ ما نعيه جيّدا نُعبر عنه بوضوح".

ج- الأسواق:

تحتل الأسواق منذ القديم مكانة هامّة لدورها الكبير في الترويج للسلع، والتقاء الناس... وقد اشتهر بعضها في الشرق كأسواق "بغداد"، و"طهران" ومعها أسواق "إزمير" و"القسطنطينية"[11]. أمّا أسواق الجزائر التي تحدث عنها كاتبنا فهي ساحات واسعة تعرض فيها البضائع المختلفة، العطور وحدها أنواع، منها ما يشتم، ومنها ما يمضغ فيترك صبغا على الأسنان بشكل منفر، ويستمر طَعْمُها في الحلق طويلا بعد بصقها، ومنها ما يحرق وينشر دخانا كثيفًا...[12]، ولا يذكر سلعا أوروبية لأنها تباع في المحلات. لم يكن "جيد" بذلك الكاتب المتجول، بل كان ذلك الفنان الحريص الذي يأبى إلا أن يقف أمام كل الظواهر والمظاهر، يراقب ويلاحظ، فهو لم ينس أن يدوّن بأن هذه الأسواق، يكثر بها الذباب وبخاصة على اللحوم المعروضة ومثلها المأكولات المختلفة... ولا حيلة للتجار في مقاومة هذا الذباب سوى إبعاده للحظات بمروحة مصنوعة من أغصان النخيل[13].

د- الاهتمام بالمواشي:

يتجلّى اهتمام سكان الجنوب الجزائري بالمواشي من خلال حديث "**جيد**" عن الأطفال الرعاة، فكم من مرّة تحدّث عنهم وعن المهمة الملقاة على عاتقهم في مثل هذه المرحلة من حياتهم! كان الشاب "لوصيف" يرعى ماعز الفقراء، كان قبل طلوع الفجر يدق على الأبواب فيخرج بعض الماعز... وهكذا قبل أن يغادر القرية، يتجمع له قطيع يناهز ستين رأسا، فيذهب به إلى المروج وإلى "العين الساخنة"[14].

لماذا كانت العائلة الجزائرية تهتم برأس من الماعز أو النعاج؟ لا أحد يجهل الجواب، فقد كان هذا "الرأس" يوفر الحليب واللحم والصوف... وكم كانت حاجة الجزائري ماسة إلى مثل هذه المواد. من هنا تبرز من جديد قيمة كتابات "**جيد**" عن الجزائر، فهي بمثابة وثيقة تاريخية هامّة لدراسة أوضاع اجتماعية متميزة عاشتها الجزائر إبان الاحتلال.

كان الكاتب يجد متعة كبيرة في الحديث عن الرعاة، كان يخرج معهم ويجالسهم ويستمع إلى قصصهم وألحانهم التي تنطلق من النّاي أنيس كل راع في وحدته وتأمّله. يذكر بالإضافة إلى "لوصيف" أخاه "الهاشمي" و"البشير" و"الصادق" وغيرهم...[15]، كم كان يحلو له أن يسجّل ويكتب عن هؤلاء الرعاة: "كنت تكتب لي يا "أتمان":

إني أحرس المواشي تحت النخيل الذي ينتظرك. سوف تعود... لن تذهب يا "أتمان" إلى ظلال النخيل حارسا المعزى..."[16]، هي جملة تفيض شوقا وحنانا لمكان ارتبط به الكاتب وإلى أصدقاء عزّ عليه فراقهم، جملة تفجّرت بكثير من المشاعر الحميمية من مكان أعاد القدرة الجسدية ومن أناس بعثوا الأمل من جديد بعد يأس طويل.

3- عادات وتقاليد:

لم تعرف تطلعات "**جيد**" حدودًا، ولم يتوقف حرصه على الخوض في أسرار الجزائر، لقد أحبّ هذا البلد من أعماق قلبه، وكم تمنّى أن يكون "هذا العربي" وأن يبقى معه إلى ما لا نهاية[17]. انطلاقا من هذا الشعور العميق "بالانتماء"، برز اهتمام "**جيد**" بعادات هذا العربي وتقاليده وما إلى ذلك من اعتقادات وخلفيات... كانت كتابات في غاية الدقة والتحليل أكّدت حرص الكاتب الشديد على الغوص أكثر في أعماق المجتمع الجزائري وكلّ ما يَمُتُّ إليه بصلة.

يذكر "**جيد**" أن من بين عادات أهل هذا البلد، تلك الحفلات التي تقام كل سنة للقضاء -حسب ما يُعتقد- على الأرواح الشريرة، يلتقي جمع من الموسيقيين والراقصات... يجوبون شوارع المدينة، تتقدمهم جماعة تحمل مشعلا، وأولاد يجرون تِيسًا أسود محلّى بالثياب والذهب، يتدلى من قرنيه سوار ومن منخريه حلقة فضّية، وفي عنقه قلادة تزينه، يجرّونه ليذبح ليلا، وذلك بعد أن يمر بكل باب من أبواب البيوت، يتقمص خلالها الأرواح الشريرة، وبذبحه يتخلص الناس وإلى الأبد من هذه الأرواح[18]. إنها عادات تعبّر عن مرحلة كان الجزائريون وقتها بعيدين عن الحقيقة، مستسلمين لأوهام وخرافات طالما أضرت بهم.

كان "**جيد**" يتمتع بشعبية كبيرة في الجنوب الجزائري، لذا لم يُمنع كغيره من الأجانب حضور حفل متميز في بيت أحد مواطني مدينة "بسكرة" يُقام كل سنة بغرض علاج نساء يُعتقد أن الجنّ تمكّن منهن؛ تأتي المريضات أمام حوض ممتلئ ماءً، لتبدأن في الرقص، بعدها يتركن شعرهنّ يتدلّى في ماء الحوض، ثم يقفن وشعرهن المبلّل يغطي أجسامهن... كانت هذه العملية تتكرر على فترات تتخللها أنغام موسيقية محلية. كان الموقف رهيبا لا يمكن أن يخطر ببال أحد حسب "أندريه جيد"؛ كانت ترأس هذا الحفل امرأة سمراء، تضرب بعصاها النساء المريضات، مهمتها طرد الأرواح الشريرة مقابل نصيب من المال، كانت النساء يجلسن وأيديهن على حافة الحوض وشعرهن يلامس الماء، كنّ يصرخن بعد كل ضربة صراخا مزعجا ليستلقين في النهاية وهن في إغماء تام، لتأخذ ساعتها العجوز السمراء كل واحدة منهن من يدها ثم تضغط برجلها أسفل البطن. يذكر الكاتب بأن حوالي ستين امرأة مريضة خضعت لهذه التجربة القاسية في هذه المناسبة، وتقول "قمرة" التي شاركت في حفل مماثل إنه لا خير يرجى من هذه العادات، كما اعترفت بأن حالتها الصحية تدهورت أكثر من قبل وظل زوجها يضربها طيلة ثلاثة أيام علّها تشفى[19].

إنه تسجيل نادر من قبل كاتب قادر حزّ في نفسه كثيرا أن يعاني شعب من مثل هذه العادات المدمّرة والتي تعود إلى عهود غابرة، عهود كان فيها الإنسان يجهل الكثير مما يحيط به، وعليه يلجأ إلى الخرافات والأشباح ويتمسك بالمعجزات والأوهام. لم ينس "**جيد**" أن يرصّع صورته بتلك الأضواء الصادرة من تلك النيران المشتعلة طوال الليالي: "عرب نصبوا في الميدان خيامهم، ونيران توقد يكاد لا يرى دخانها في المساء"[20]. إننا ندرك حقا القيمة الكبيرة لمثل هذا الأمر، فالنار كانت دوما دليل المسافر ليلا وبخاصة إذا ما ضل طريقه، كما إنها دعوة

صريحة للاستراحة وتناول بعض المأكولات والمشروبات قبل مواصلة الرحلة، وهذا ليس بغريب عن الجزائريين وغيرهم من العرب الذين اشتهروا بحسن الضيافة وتوفير أسباب الراحة والاطمئنان لكل عابر سبيل[21]. لم ينس "**جيد**" أن يسجل التقاء النسوة قرب الوادي بمناسبة غسيل أشياء وأدوات متنوعة، كانت فرصة لهن للحديث والحكي وتبادل الأخبار وكيف ينظرن إلى المستقبل...

هي صورة لتقاليد الجزائر وعاداتها، وإذا ما أردنا استقراءها بتأنٍّ وتأملها بعمقٍ، لا يسعنا إلا أن نقول بأنها صورة آية في الروعة، صادقة في التعبير، دقيقة في التجسيد، بيّنت بحق مدى ارتباط الكاتب بجذور هذا الوطن وأرضه وشعبه، ولعلها المفارقة التي تحتاج إلى متابعة وبحث.

4- طبيعة الجزائر:

جاء "**جيد**" إلى الجزائر وهو يعيش كابوسا حقيقيا بخصوص حالته الصحية المتدهورة وحالته النفسية المنحطة، وراوده مرارا شك بأن حياته في خطر، وشاءت الأقدار أن تكون واحة "بسكرة" المكان المناسب ليستعيد فيه الأمل والحياة معا. لقد قدّمت له "الديكور" الذي فعل فعلته في قلبه ونفسه، فتفتحت الدنيا أمام عينيه كما تفتقت جميع حواسه، فكان البعث الجديد في العالم الجديد[22].

انطلاقا من هذا الإحساس العميق بالراحة الجسدية والطمأنينة النفسية والأمل الذي أصبح مشروعا في حياة هادئة، جاء وصف "**أندريه جيد**" لطبيعة الجزائر متميّزا، يمتزج فيه الخيالي بالواقعي كقوله: "بسكرة في المساء".

في هذه الشجرة كانت الطيور تشدو. إنها تغني! آه! وظننت أنها استطاعت أن تغني أكثر مما تستطيع الطيور. ولاح لي كأن الشجرة ذاتها تصرخ –تصرخ بكل أوراقها إذ كانت خفيفة فالطيور لا ترى. كنت أفكر: إنها ستموت فيها"[23].

كان لوصفه بعض الحدائق، تنفجر انفعالاته وأحاسيسه لِتُبدع لنا فنا راقيا، تمتزج فيه عناصر تصويرية مع أنغام موسيقية تَلُفُّهَا مشاعر عاطفية رقيقة تجعل القارئ يعيش حلما استثنائيا: "الواحات! تعوم فوق الصحراء كأنها جزر ومن بعيد قواعد خضرة النخيل، الينبوع الذي ترتوي منه عروقها. أحيانا يكون فياضا وتنحني عليه أشجار الدّفل. في ذلك اليوم، عند الساعة العاشرة حين وصلنا إليه، كنت أرفض أن أذهب إلى أبعد، فإن فتنة أزهار هذه الحدائق كانت تغريني فلا أريد الافتراق عنها...

واحة! والتالية كانت أروع جمالا وأكثر امتلاء بالزهر والضجيج، أشجار أكبر تنحني على مياه أغزر. كان الظهر فاغتسلنا، ثم حمّ علينا الفراق"[24].

لم يكن "**جيد**" ليفضّل منظرا على آخر، فهو إلى جانب الشجرة والطيور التي تسكنها، والحدائق الساكنة الفواحة بالزهور والعطور... يفاجئنا بمنظر تتجدد فيه رؤيته الشاعرية ومخيلته الأدبية. "رأيت تحت خيط الفجر البازغ جبال (أحمر خادو) تصبح وردية أشبه ما تكون بمادة مضطرمة.

رأيت الريح تثير من قلب الأفق الرمل مذروًا على الواحة. كانت تبدو كأنها ليست إلا سفينة روّعتها العاصفة، كانت مضطربة في مهب الريح. وفي دروب القرية الصغيرة ظمأ كالحمى يتلظى به رجال عراة نحاف"[25].

كانت حياة "**أندريه**" رحلة لا تتوقف، إذ لم يكن يستقر به مكان حتى يتنازعه الشوق إلى مكان آخر، فها هو يكتشف محطة جديدة في بلاد الجزائر، إنها مدينة "البليدة" التي استقبلته بورودها العطرة: "بليدا! بليدا! يا زهرة الساحل، أيتها الوردة الصغيرة، رأيتك فاترة، ومعطرة، مليئة بالأوراق والأزهار"[26]، إن إعجاب "جيد" بمدينة البليدة

لا حدود له، تؤنسه طبيعتها وتفجّر ورُودُها قلبه ليخفق عاليا، ووجدانه ليفيض أحاسيسا: "أمَّا في بليدا التي لجأت إليها فقد وجدت البرتقال مزهرا.

أخرج منذ الصباح، أتنزه ، لا أنظر إلى شيء وأرى كل شيء، سمفونية رائعة تتألف وتنتظم في ذاتي أحاسيس غير مسموعة... ثم أختار مخلوقا أو شيئا ألهو به، لكني أريده متحركا لأن انفعالي إذا حدّد لا يعود حيّا، ويبدو لي آنئذ في كل لحظة جديدة أني لم أرَ بعد شيئا ولا تذوقت شيئا... هرعت أمس إلى أعلى الروابي المشرفة على "بليدا "لأرى الشمس مدة أطول، لأرى غروب الشمس والغيوم الملتهبة تلوّن السطيحات البيضاء"[27].

أمّا في مدينة الجزائر فتفتح عيناه على ديكور مغاير لما شاهده في بسكرة، فلا أثر فيها للرمال المحرقة وأشجار النخيل... بل هو البحر بكل أسراره الدفينة وإيحاءاته العجيبة:

"مدينة الجزائر.

السفوح التي ربضت عليها الروابي.

المغارب التي تلاشت فيها النهارات.

الشواطئ التي تدفّقت عليها فتيات البحر.

الليالي التي هجعت فيها لواعج غرامنا...

الشواطئ التي هدأت –السفن في المرفأ.

سنرى على اللجج التي خفّت.

نوم الطيور الرحالة والقارب الراسي.

المساء يأتي إلينا فاتحا مرساه الرحيب.

عن السكوت والصداقة.

هذه هي الساعة التي ينام فيها كل شيء"[28].

تمثل إذن طبيعة بلاد الجزائر في كتابات "**جيد**" العالم والحياة والوجود... بل تمثل الجنة التي يطيب له فيها المُقام والحديث عن كل شيء، والاستمتاع بكل ما تشتهيه نفسه ويرغب فيه قلبه، كان لا يسمح فيها لأي كان أن يعكر صفوه أو يقف حاجزا أمام اندفاعاته، فالنشوة تلد النشوة لا غير، والذكي من يعرف كيف يستغل وقته في فردوسه.

5- صحراء الجزائر:

انبهر "**أندريه جيد**" بالجزائر، فتعلّق بها أكثر من أي بلد آخر، ولو تساءلنا عما سحره فيها فعلا لما وجدنا جوابا آخر غير "الصحراء" فلا شيء هيمن على شعوره واستحوذ على كيانه أكثر من الصحراء. لقد حرّكت فيه كلّ شيء، وقبل هذا كانت عاملا أساسيا في استعادة صحته وتوازنه.

كان في زيارته الأولى للجزائر يخشى الصحراء ومفاجآتها برياحها ورمالها، لكن سرعان ما استأنس بها إلى درجة أصبح يفضل السير فيها حتى تختبئ الواحات ويشعر بأنه وحده في هذا العالم[29].

لم يتردّد لحظة في البوح بحبه الكبير لصحراء الجزائر: "... وفي اليوم التالي أغدو ولا أحب إلي من الصحراء... أيتها الأرض القاحلة، الأرض التي لا خير فيها، ولا عذوبة، أرض العاطفة والورع، الأرض التي أحبّها الأنبياء، آه! أيتها الصحراء المؤلمة، صحراء المجد، إني أحببتك حبّا جمّا"[30]. لقد مكنه تعلقه بالصحراء

من بلوغ القمة في الوصف والروعة في التصوير والبراعة في التعبير: "كم وددت أن أحبك حبا جمّا يا صحراء الرمل! آه! أية حياة تتذكر أيها الغبار؟ متيّم بأي حبّ، الغبار يريد أن تمدح وتشكر.

يا روحي ماذا رأيت على الرمل!

عظاما نخرة، وأصدافا فارغة...

صحراء من صلصال، هنا كل شيء يمكن أن يحيا لو سال قليل من الماء، ما أن يهطل المطر حتى يخضر كل شيء، وعلى الرغم من شدة جفاف الأرض التي لم تألف الابتسام، فالعشب فيها كأنه أكثر نضارة وأزكى عطرا ممّا هو في غيرها، وهي أسرع بالإزهار والتضوّع، مخافة أن تذبلها الشمس قبل أن تنضج حبتها. إن حبها سريع معجل...

صحراء رملية، رمال متحركة كلجج البحر، كثبان متنقلة باستمرار، أنواع من الأهرام ترشد القوافل من بعيد، فإذا صعدت قمة إحداها في طرف الأفق شاهدت القمة الأخرى.

وحين تهب الريح تقف القافلة، ويحتمي الجمالة بظلال نوقهم(31).

ظل "**جيد**" يجهل مفاجآت الصحراء رغم معرفته بها وحبّه لها، فهي تبدو له أحيانا كبحر تحت أشعة الشمس الساطعة شبيه بالسراب ولا يتحقق منه إلا بلمسه(32)، كما كان حريصا على الاستمتاع بأجمل لحظة وأروع وقفة تمنحه إياه الصحراء كل صباح يوم جديد، هو منظر طلوع الشمس الفاتن وما يبعثه من بهجة في القلب وما يثيره من تأمل في الفكر، وعليه كان يترك نوافذ غرفته مفتوحة حتى يستيقظ على كل صوت يسمعه(33).

هي صحراء الجزائر إذن التي استولت على كيان الكاتب ومنحته أروع الإيحاءات، وبدوره احتضنها وأحبها ورسم لها أجمل الصور بأبهى الألوان وأحلى الكلمات.

6- حضارة عربية إسلامية:

لم يكن "**جيد**" لينسى أن يكمل صورته عن الجزائر ليجعل منها الصورة الحيّة الخالدة دون أن يطبعها بما هو أصيل في تراثها، متجذر في ثقافتها، إنه دينها الإسلامي وحضارتها العربية الشرقية، فها هو جامع البليدة يقف شاهدًا حيّا على ذلك: "وفي حديقتك المقدسة يتلألأ جامعك الأبيض... كانت نغمات هذا الدعاء مدهشة إلى درجة أننا بقينا بلا حراك، في حال من النشوى تملأنا غبطة"(34)؛ كان لا يتمالك –لشدة إعجابه بالمساجد ودعاء المؤذنين– عن التعبير عمّا يختلج في نفسه من مشاعر ويبهر سمعه وبصره في الوقت نفسه: "ولكن عبر فجر مازال بعد نديا، لم تكن تصدر إلا بعض الهمهمات المجهولة التي كانت تضيع في فراغ الفضاء. وفجأة ينطلق مع بزوغ الشمس نشيد عن بعض المآذن، النشيد الأول نحو الشمس الصاعدة. نشيد مؤثر عجيب كدنا نبكي له. كان الصوت يرسل ذبذبات حادّة. وتفجّر دعاء ثم دعاء، وأخذت المساجد تستيقظ مترنمة عند التقائها بأول شعاع من أشعة الشمس... وكان المؤذنون يتجاوبون في الفجر كأنهم قنابر"(35).

يبدو جليّا مما تقدم بأن الجزائر ألهمت كاتبنا "**أندريه جيد**" من خلال ما قدمته له من مادة ثرية، تنوعت بين الطبيعة والصحراء ومظاهر مختلفة عن حياة الجزائريين بعاداتهم وتقاليدهم وتجارتهم ونمط معيشتهم وعقيدتهم... ومن باب الاعتراف وردّ الجميل فجّر هو بدوره كل طاقاته الإبداعية والفكرية ليرسم لها صورة جمعت بين الواقعي والخيالي، والأسطوري والسحري، صورة قل نظيرها في الأدب العالمي، ولا نبالغ إن قلنا ربما تضاهيها صورة "**غوتة**" عن إيطاليا.

وخلاصة القول إن الرحلة عمل مفيد في دراسة الأدب المقارن لأن الاتصال بالشعوب، يفتح آفاقا للفهم لا تتهيأ عن دراسة الكتب وحدها ، و تساعد هذه الرحلات على إدراك المزاج الشخصي لشعب من الشعوب والعادات والميول التي تتحكم في تفكيره واتجاهاته، كما أن الجمال في أي رحلة أمر لازم في عمل الأديب لأنه عامل من عوامل الجذب ومصدر من مصادر التأثير.

الهوامش:

1-أندريه جيد ANDRE GIDE كاتب فرنسي من مواليد 1893 بباريس، من أب بروتستانتي وأم كاتوليكية. تميزت سنواته الأولى بنشاطات واهتمامات متنوعة بفضل رعاية والده، حيث مكّنه من الاطلاع على كتب هامّة كالأوديسا والسندباد البحري وموليير... كان يحب الترحال فزار العديد من الدول، وأحبّ الشرق وعشقه وكتب عنه. وإذا ما أردنا اختصار حياة **جيد**، فإننا نقول إنه نشر خلال أكثر من نصف قرن مجموعة هائلة من الكتب والأعمال، تحدث فيها بصفة المطّلع المتمكن في مجالات عديدة كالفلسفة والدين والحضارة، والأدب من خلال المسرح والرواية والشعر والنقد والأسطورة... أعمال مكّنته من انتزاع جائزة نوبل للآداب عن جدارة واستحقاق عام 1947.

2- André Gide : L’Immoraliste, Romans, Récits et Soties, Œuvres Lyriques, Editions Gallimard, 1958, P466

3- André Gide : Si le grain ne meurt Journal 1939-1949, Souvenirs, Editions Gallimard, 1954, P 564.

وانظر أيضا:

André Gide : Feuilles de Route, Journal 1889-1939, Editions Gallimard, 1951, P79.

4-أندريه جيد: قوت الأرض، والقوت الجديد، إشراف ومراجعة الدكتور شكيب الجابري، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، يناير 1956، ص 184.

5– Schveitzer (M), Gide aux Osais, Edition de la Fraternité, د.ط، د.ت, P 39.

6- André Gide : Si le grain ne meurt, P 564.

7-أندريه جيد: قوت الأرض، ص 140.

8-المصدر نفسه، ص 140.

9- André Gide : Si le grain ne meurt, P 585-590.

10- أندريه جيد: قوت الأرض، ص 142.

11- أبو العيد دودو، الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830–1850) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975، ص 62.

12- أندريه جيد: قوت الأرض، ص 140-141.

13- André Gide : Feuilles de Route, P 87.

14- المصدر نفسه، ص 75.

15- المصدر نفسه، ص 76.

وانظر أيضا:

- André Gide : L’Immoraliste, P 392-393.

16- أندريه جيد: قوت الأرض، ص 134.

17- André Gide : Feuilles de Route, P 76.

- André Gide : Si le grain ne meurt, P 83.

18- André Gide : Feuilles de Route, P 83

19- المصدر نفسه ص 84-85.

20- أندريه جيد: قوت الأرض، ص 141.

21- المصدر نفسه، ص 142.

22- أندريه جيد: قوت الأرض، ص 24.

وانظر أيضا: André Gide : L'Immoraliste, P 391-392.

23- أندريه جيد: قوت الأرض، ص137 .

24- المصدر نفسه، ص 139.

25- المصدر نفسه، ص 143.

26- المصدر نفسه، ص 56.

27- المصدر نفسه، ص 133.

28- المصدر نفسه، ص 130-131.

29- André Gide : Feuilles de Route, P 75-76.

30- أندريه جيد، قوت الأرض، ص 140، 143.

31- المصدر نفسه، ص 144-145.

32- André Gide : Feuilles de Route, P 81-82.

33- المصدر نفسه، ص 75.

34- أندريه جيد، قوت الأرض، ص 22.

35- المصدر نفسه، ص 22.